المحاضرة الأولى

السرد العربي القديم (المفهوم- النشأة- التطور)

يقول الرقشي
"ما تكلمت به العرب من جيد المنثور، أكثر
مما تكلمت به من جيد الموزون، فلم يحفظ
من المنثور عشره، ولا ضاع من الموزون عشره"
البيان والتبيين، الجاحظ، ج الأول، ص289

أولا. دراسة في المفهوم:

إن السرد في اللغة هو تقدمة شيء إلى شيء، تأتي به منسقا بعضه في أثر بعض، ومنه (سرد الحديث) إذا تابعه، وسرد القرآن تابع قراءته. والسرد: الخرز في الأديم، وقيل سردها أيّ نسجها[1]. وقد فسّر القرطبي لفظة (السرد) في قوله تعالى: (**أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**)[2] بـ: التتابع والولاء في نسق واحد، يقول: "السرد نسج حلق الدروع، ومنه قيل لصانع حلق الدروع السراد، والزراد، والسرد الخرز، يقال سرد يسرد إذا خرز والسرد الأشفى، ويقال سرد الحديث والصوم فالسرد فيهما أن يجيء بهما وِلاءٌ في نسق واحد، ومنه سرد الكلام"[3].

وفسر ابن عطية "السرد في الآية بقوله: هو ألاّ يجعل المسمار غليظا والثقب دقيقا فينفصم الحلق، ولا يجعل المسمار دقيقا، والثقب واسعًا فيتقلقل أو يتعلم، والمقصود اجعله على القصد وقدر الحاجة، فلذلك أمر بالتقدير فيها يجمع بين الخفة والحصافة"[4].

---

[1] ينظر: ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، 1955، المجلد الثالث، مادة (سرد)، ص211.

[2] سورة سبأ، الآية 11.

[3] القرطبي (محمد بن أحمد الأنصاري)، الجامع لأحكام القرآن، دار الكتاب العربي، بيروت، الجزء الرابع عشر، ص267–268.

[4] ابن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1993، ج4، ص708.

ما يفهم من كلام القرطبي، وابن عطية أن السرد يعني التتبع، وتقدمة شيء إلى شيء، وجعله على القصد وقدر الحاجة.

ورغم أن الجذور اللّغوية لمادة (س ر د) تحيل على نسج الكلام وتتابع الحديث، إلاّ أن الخطاب النقدي العربي القديم لم يستعمل هذا المصطلح (السرد)، بل استعمل مصطلحات أخر مجاورة له في المعنى والدلالة وهي: القص، القصص، الخبر، الحديث، الحكي.

وبالعودة إلى لسان العرب(*) نجد أن الدلالة اللّغوية لهذه الألفاظ متقاربة بل متطابقة أحيانًا.

– **القص:** فعل القاص إذا قصص القصص، وقصصت الشيء: إذا تتبعت أثره شيئا بعد شيئ، ومنه قوله تعالى: (**وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ**) أي تتبعي أثره.

– **الحكي:** حكيت فلانا وحاكيته إذا فعلت مثل فعله، أو قلت مثل قوله سواء، لم أجاوزه.

– **الحديث:** حَدَث الشيء يحدث حدوث وحداثة، الحديث الخبر يأتي على القليل والكثير والجمع أحاديث، والأحدوثة بمعنى الأعجوبة، ورجل حِدث الملوك: إذا كان صاحب حديثهم وسمرهم.

– **الخبر:** خَبَرْت الأمرَ أخبره إذا عرفته على حقيقته، والخُبْرُ العلم بالشيء.

فالمشترك بين هذه الألفاظ هو الإنباء، والإظهار، والتتابع، وسوف نبيّن في الصفحات الموالية لماذا نستعمل مصطلح السرد بدل المصطلحات الأخرى في خطابنا النقدي المعاصر.

إن أعلام الخطاب النقدي العربي المعاصر –خاصة بعد تلقيهم المفاهيم الغربية الحديثة ومباحث البويطيقا بفرعيها: الشعريات (شعرية الخطاب الشعري)، والسرديات (سردية الخطاب السردي)– يستعملون السرد أو السردية "Narratology". وقد ترجم المصطلح بـ: علم السرد، أو السرديات أو المسردية أو السردلوجية والناراتولوجيا... كما ترجم الفعل "Narrate" بلفظي (سرد) و(قص) وأحيانا (روى). أما الاسم Narrator فيترجم بـ(الراوي) أو (السارد)[1].

(*) ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (قص، حكى، حدث، خبر).

[1] ينظر: فاضل تامر:، اللّغة الثانية، في إشكالية المنهج والنظرية والمصطلح في الخطاب النقدي العربي الحديث، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، ص178.

ومن ثمّ فالسرد هو القص أو الحكي والإخبار، وفي المجال الأدبي والنقدي هو: "عرض لحدث أو لمتوالية من الأحداث حقيقية أو خيالية، عرض بوساطة اللّغة، وبصفة خاصة بوساطة لغة مكتوبة"[1]. إن النسق الثقافي الذي انطلق منه جيرار جينيت في تعريفه للسرد هو نسق غربي حيث السيادة للّغة المكتوبة. في حين نجد أن النسق العربي يدفعنا إلى الحديث عن السرد بشقيه المكتوب والمنقول فالشفاهية سمة لجل المرويات والسرود العربية القديمة.

يقول عبد الله إبراهيم: "ينتمي السرد العربي القديم إلى السرود الشفاهية، فقد نشأ في ظل سيادة مطلقة للمشافهة، ولم يقم التدوين الذي عرف في وقت لاحق لظهور المرويات السردية، إلا بتثبيت آخر صورة بلغها المروي، الأمر الذي يؤكد قضية تاريخية مهمة، وهي أن المدونات السردية لا تمثل سوى المرحلة الأخيرة التي كان عليها المروي قبل تدوينه"[2].

ولهذا نتبنى تعريفا آخر للسرد –نحسبه– جامعا للمشافهة والمكاتبة معًا: يقول سعيد يقطين: السرد هو: "نقل الفعل القابل للحكي من الغياب إلى الحضور، وجعله قابلاً للتداول، سواء كان هذا الفعل واقعيا أو تخييليا، وسواء تم التداول شفاها أو كتابة"[3]. فالسرد بهذا المفهوم يرتكز على مقومين هما:

1– الفعل القابل للحكي: فكل فعل إنساني قابل للحكي والتداول هو فعل سردي؛ سواء كان واقعيا أو خياليا، بسيطا أو مركبا. ولهذا وجد السرد منذ أن وجد الإنسان وسيبقى مادام الإنسان باقٍ، فالسرد هو الحياة.

2– لغة السرد: فالسرود بأنواعها القديمة (الأسطورة، النادرة، الحكاية، الخرافة، المقامة، الخبر...) والحديثة (القصة، الرواية، المسرحية، الشريط السينمائي...) تستند إلى لغة مكتوبة أو شفوية... وإن كان ثمة فروق جوهرية بين السرود الشفاهية والسرود المكتوبة ليس لكون الأولى قديمة والثانية حديثة، وإنما لما تتميز به البنى السردية في كل منهما "إذ اتصفت

---

[1] جيرار جينت، حدود السرود، ترجمة بن عيسى بوحمالة، ضمن كتاب طرائق تحليل السرد الأدبي، منشورات اتحاد كتاب المغرب، ط1، 1992، ص71.

[2] عبد الله إبراهيم، السردية العربية، مبحث في البنية السردية للموروث الحكائي العربي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 1992، ص16.

[3] سعيد يقطين، السرد العربي –مفاهيم وتجليات– رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2006، ص72.

المرويات السردية الشفاهية بأنها تتألف من الراوي وحكاية والمتلقي الضمني. أما السرود المكتوبة فإنها تتألف من "محاكاة" أو "تمثيل" لكل من الراوي وحكايته والمتلقي الضمني"[1].

أما مصطلح (علم السرد) الذي استعمله "تودوروف" أول مرة سنة 1969 فهو "دراسة القص واستنباط الأسس التي يقوم عليها، وما يتعلق بذلك من نظم تحكم إنتاجه وتلقيه"[2].

لأن السرد منظومة حكاية، أو بنية مركبة من أركان أربعة (السارد، المتلقي، اللغة، الشخصية)، و"كلما اختفى واحد من هذه الأقطاب إلا وانتفى العقد وبطل السرد"[3].

وقد بدأت الدراسات العلمية للقص والسرد مع صدور العدد الثامن من مجلة "Communications" عام 1966 والذي حمل هذا العنوان (التحليل البنيوي للقصة)، وكان لهذا العدد القيمة الأساسية في بيان المنهج العلمي لدراسة القصة ، خاصة المقال الاستهلالي لـ"رولان بارت"، وبحثه في الوظائف والأفعال السردية، بالإضافة إلى مقال "ت. تودوروف" حول الحكاية والخطاب، وقد استند كلاهما إلى كتابات الشكلانين الروس[4].

إن علم السرد لا يفسر النصوص الحكائية، إنما يسعى إلى كشف أسرار اللّعبة السردية، فهو لا يشتغل بالمضمون إنما يركز على الشكل؛ ودراسة الشكل لا تعد مسألة شكلية كما تذكر "يمنى العيد"، لهذا نجد "تودوروف" انطلق من ثنائية (المتن الحكائي) و"المبنى الحكائي" عند توماتشفسكي ووسعها إلى ثنائية القصة والخطاب، يقول: "للعمل الأدبي في مستواه الأعم مظهران: فهو قصة وخطاب في الوقت نفسه، بمعنى أنه يثير في الذهن واقعا ما وأحداثا تكون قد وقعت تختلط من هذه الوجهة بشخصيات الحياة الفعلية، وقد كان بالإمكان نقل تلك القصة ذاتها بوسائل أخرى، فتنتقل بوساطة شريط سينمائي مثلا، وكان بالإمكان التعرف عليها كملخص شفوي... غير أن العمل الأدبي خطاب في الوقت نفسه، فهناك سارد يحكي القصة

---

[1] عبد الله إبراهيم، السردية العربية، ص15.

[2] ميجان الرويلي، وسعد البازعي، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط3، 2002، ص174.

[3] ينظر، محمد ساري، نظرية السرد، مجلة السرديات، مخبر السرد العربي، جامعة منتوري، قسنطينة، العدد الأول، 2004، ص17.

[4] ينظر: أوزولد ديكرور، وجان ماي ستايز، القاموس الموسوعي الجديد لعلم اللسان، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط2، 2007، ص208.

أمامه يوجد قارئ يدركها، وعلى هذا المستوى ليست الأحداث التي يتم نقلها هي التي تهم، إنما الكيفية التي بها أطلعنا السارد على تلك الأحداث"[1]. وعليه فالسرد قصة وخطاب:

– في القصة يتم الاشتغال بـ الأفعال ومنطق ترابطها والشخصيات والعلاقات القائمة بينها (علاقة التواصل، علاقة الرغبة، علاقة الصراع).

– وفي الخطاب ينحصر الاشتغال في المقولات الثلاث: مقولة الزمن، مقولة الرؤية، مقولة الصيغة. في الزمن يميز "تودوروف" بين زمن القصة وزمن الخطاب ويضيف لهما زمنين هما زمن التلفظ (الكتابة) وزمن الإدراك (القراءة). وفي مظاهر السرد يدرس الرؤية السردية (الرؤية من الخلف، الرؤية مع، الرؤية من الخارج)، وفي أنماط السرد يتحدث عن النمط المسرود، والنمط المعروض[2].

مصطلح السردية:

هذا المصطلح تبناه "عبد الله إبراهيم" ودافع عنه بشدة مبررًا ذلك بقوله: "إن المصدر الصناعي في العربية يدل على حقيقة الشيء وما يحيط به من الهيئات والأحوال، كما ينطوي على خاصية التسمية والوصف معًا، ولهذا نتبنى مصطلح السردية بوصفها مصطلحا يحيل على مجموعة الصفات المتعلقة بالسرد والأحوال الخاصة به والتجليات التي تكون عليها مقولاته"[3].

نعم مصطلح السردية أسهل وأيسر وأكثر انتشارًا وفي الخطاب النقدي شأنه في ذلك شأن مصطلح (الشعرية) أو (الأدبية)، فالسردية هي فرع من أصل كبير هو (البيوطيقيا) التي تعنى بأدبية الخطاب الأدبي بوجه عام،÷ أي "استنباط القواعد الداخلية للأجناس الأدبية،

---

[1] ت. تودوروف، مقولات السرد الأدبي، ترجمة الحسين سبحان وفؤاد صفا، ضمن كتاب طرائق تحليل السرد الأدبي، ص41.

[2] للتوسع: العودة إلى كتابين:

– طرائق تحليل السرد الأدبي، مجموعة من المؤلفين، منشورات اتحاد كتاب المغرب. ../..

../..– تحليل الخطاب الروائي، سعيد يقطين،

[3] عبد الله إبراهيم، موسوعة السرد العربي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2005، ص10.

واستخراج النظم التي تحكمها وتوجه أبنيتها وتحدد خصائصها وسماتها"[1] ومع هذا يبقى مصطلحا (علم السرد) و(السردية) لهما دلالة واحدة وهي الاشتغال على هذه القناة:

راو ← مروي ← مروي له

ولهذا يخلص عبد الله إبراهيم إلى هذا الحد: "السردية هي العلم الذي يعنى بمظاهر الخطاب السردي، أسلوبًا وبناءً ودلالة"[2]، وهو تعريف مركب جمع فيه بين التيارات الكبرى في علم السرد، وهي: [3]

1- التيار الدلالي: ويمثله "بروب" و"بريمون" و"غريماس" حيث ركز هؤلاء على الفعال السردية، ومنطق ترابطها لأن العمل الحكائي يتحدد من خلال (أفعال) تقوم بها (فواعل) في فضاء معين، ويعرف هذا التيار بـ(سرديات القصة).

2- التيار اللساني: ويمثله كل من "بارت" و"تودوروف"، و"جيرار جينيت" واهتم هؤلاء بالمظاهر اللغوية للخطاب أي طريقة تقديم المادة الحكائية، فالمادة الحكاية واحدة، لكن أشكال تقديمها تختلف باختلاف الخطابات وأنواعها، ويتحدد الخطاب من خلال هذه المقولات الثلاث: الزمن، الرؤية، الصيغة، ويعرف هذا التيار بـ(سريدات الخطاب).

3- التيار النصي: سعى كل من "جاتمان" و"برنس" إلى الإفادة من المعطيات السردية الدلالية (سرديات القصة) والتيار اللساني أي (سرديات الخطاب)، والعمل على دراسة الإنتاج السردي في صورته الكلية، وهو ما يعرف بـ(السرديات النصية)، ولأنها تهتم بالنص السردي باعتباره بنية مجردة والبحث عن تماسكه وانسجامه وعلاقته بالمتلقي في الزمان والمكان، وهو أشمل التيارات لأنه اهتم بالأفعال السردية وبنظرية عرض المادة الحكائية، وزاد على التيارين

---

[1] ت. تودوروف، الشعرية، ترجمة شكري المبخوت، ورجاء بن سلامة، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط2، 1998، ص32.

[2] عبد الله إبراهيم، السردية العربية، ص09.

[3] ينظر: سعيد يقطين، الكلام والخبر (مقدمة للسرد العربي)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 1997، ص23 إلى 32 ومن 223 إلى 227.

الاهتمام بالمنتج (الناص) والمتلقي معا. وقد جمع سعيد يقطين هذه التيارات الثلاثة في هذه الترسيمة البيانية[1].

[1] المرجع السابق، ص32.

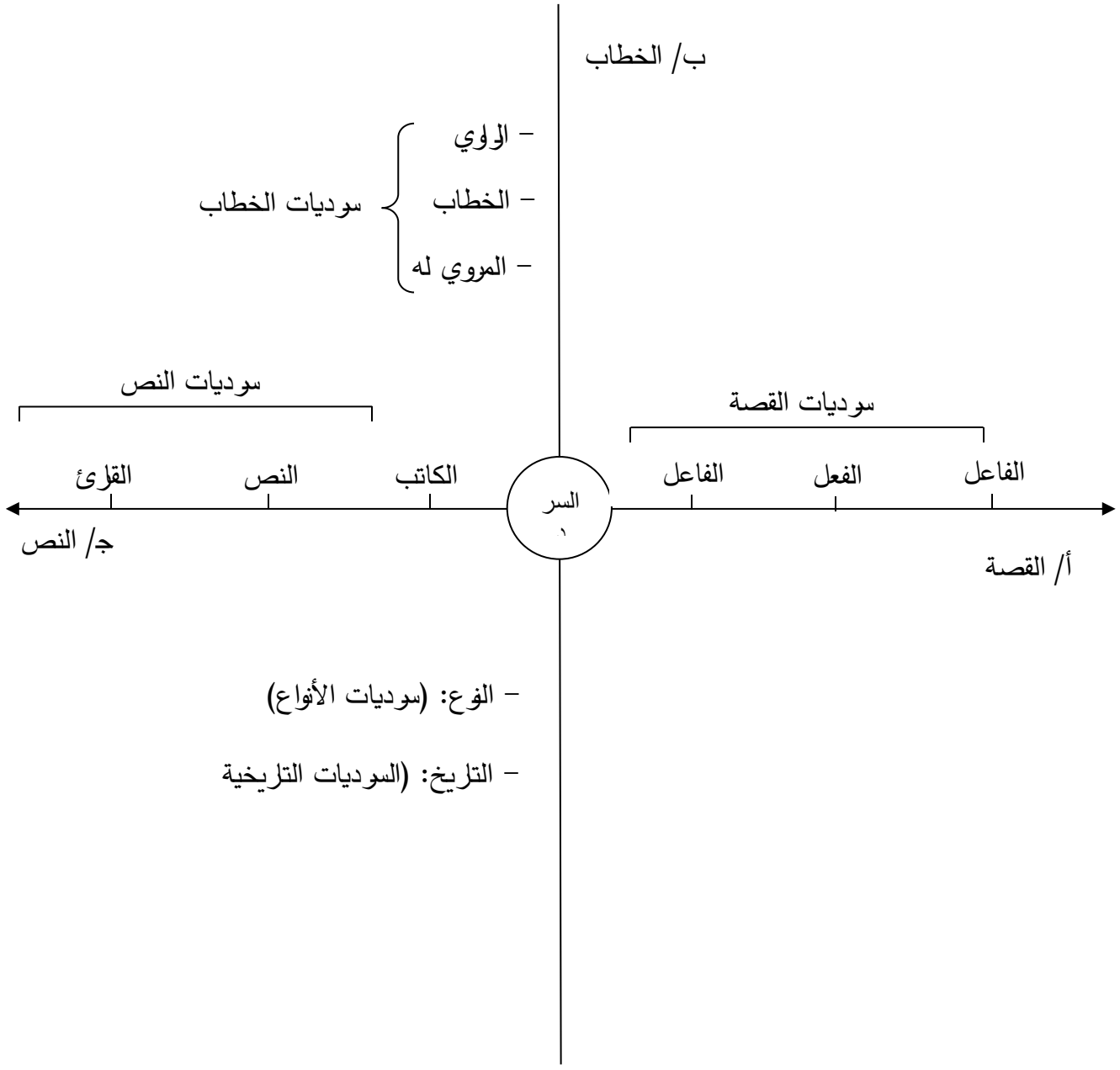

السرد ومختلف الاختصاصات السردية[1]

[1] المرجع السابق، ص32.

مصطلح السرد العربي القديم:

هذا المصطلح أي (السرد العربي) أول من استعمله –في علمنا– هو "سعيد يقطين"، والذي برر ذلك بقوله: "السرد العربي مفهوم جديد استعمله ليكون المفهوم الجامع لكل التجليات المتصلة بالعمل الحكائي، ويتسع لكل ما تفرق في مصطلحات عربية قديمة وحديثة يتصل كلّها بصيغة أو بأخرى بأحد الأنواع الحكائية، ولم يرق أي منها ليكون في الاستعمال العربي ذلك المفهوم الجامع الذي يتخذ بعد الجنس"[1].

وللتوضيح أكثر ينبغي أن نفرق بين مصطلحي (الجنس) و(النوع) أولاً، فنقول: تكاد تتفق المعاجم اللّغوية على معنى (الجنس) و(النوع) والفرق بينهما، فقد جاء في لسان العرب: "الجنس/ الضرب من كل شيء، وهو من الناس ومن الطير ومن حدود النحو والعروض والأشياء جملة والجنس أعم من النوع، ومنه المجانسة والتجنيس... وهذا يجانس هذا أي يشاكله..." [2]. وقال ابن فارس: "الجنس: الضرب من الشيء..." [3]، وقال صاحب (المصباح المنير): "الجنس: الضرب من كل شيء والجمع أجناس وهو أعم من النوع فالحيوان جنس والإنسان نوع"[4]. أما النوع فهو "أخص من الجنس وهو أيضا الضرب من الشيء، قال ابن سيده: وله تحديد منطقي والجمع أنواع، وهو كل صنف من الثمار والثياب، وحتى الكلام"[5].

وجاء في المعجم الفلسفي[6]: "الجنس هو المقول على كثيرين مختلفين بالنوع كالحي، وجنس الأجناس أو الجنس العالي هو الذي ليس فوقه جنس، وتحته أجناس كالجوهر، وهناك الجنس المتوسط، وهو الذي فوقه جنس وتحته جنس، والجنس الأدنى لا ينطوي إلا على أنواع".

---

[1] سعيد يقطين، كتاب تاريخ السرد العربي، مجلة التبيين، الجمعية الثقافية الجاحظية، الجزائر، العدد 115، سنة 2000، ص33.

[2] ابن منظور، لسان العرب، تحقيق أحمد حيدر، دار الكتب العلمية، بيروت، المجلد 4، مادة (جنس)، ص156.

[3] ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1979، المجلد الأول، ص486.

[4] الفيومي، المصباح المنير، دار القلم، بيروت، ص54.

[5] ابن منظور، لسان العرب، المجلد 8، ص364.

[6] ينظر: المعجم الفلسفي، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، مصر، ص63.

فالجنس يحمل صفة التعميم، والنوع فيه دلالة على التخصيص كقولنا: الكلمة (جنس)، والاسم والفعل والحرف أنواع لها.

فلا ينبغي أن نستعمل –إذن– مصطلح الجنس والنوع من باب الترادف، لأن الأول فيه خاصية التعميم والثاني فيه خاصية التخصيص، فالسرد (جنس) شأنه شأن (الشعر). ثم يتفرع (السرد) إلى أنواع منها: الحكاية، الخرافة، السيرة، المقامة... وللتوضيح أكثر نقول إن المقامة العربية خطاب سردي؛ أي أنها نوع من الأنواع السردية له مواصفاته البنيوية الخاصة به، وهو خطاب أو نوع يوجد ضمن إطار أوسع هو الجنس وأعني به (السرد العربي القديم).

وقد يعترض –البعض– على مصطلح السرد العربي القديم بحجة أن العرب لم يعرفوا هذا المصطلح ولم يستعملوه، فنجيبهم بضرورة الفصل بين المفاهيم (المصطلحات)، والتجليات (الممارسات الإبداعية). يقول سعيد يقطين: "إننا نضع المفاهيم كمقابل للتجليات ونرى أن المفاهيم وليدة الوعي بالظاهرة، وامتلاك القدرة على فهمها وتفسيرها... وهذه المفاهيم، للتوضيح، تتصل بتسمية الأشياء، ووضعها في نسق ينظم علاقاتها بغيرها، ويحدد موقعها منها، أما التجليات فهي الصور الأولية التي تتحقق بها الأشياء"[1]. فـ(التناص) مصطلح جديد استعمل في الخطاب النقدي المعاصر، لكن "التجلي التناصي" قديم قدم النص، استعمله العرب بمصطلحات أخر شأن: السرقات الأدبية، الاقتباس، الأخذ... وكذلك مصطلح السرد العربي فهو جديد أما التجلي السردي، فاستعمله العرب بمفاهيم أخر كالقصص، والأخبار، والنوادر، والحكايات.

فالسرد العربي هو المفهوم الجامع لهذه الأشكال لأن "المفهوم الجامع يستوجب أشكالا متعددة من الممارسات والتجليات النصية، ويعطي تسميات جديدة ألحقت بتلك الأشكال وفي مختلف الحقب وذلك على اعتبار أن التسميات السابقة كانت محدودة وضيقة عن الشمول، أو كانت تحكمها رؤيات خاصة، وهذا ما جعلها غير دقيقة عكس المفهوم الجامع، إنه يرصد الظاهرة في كليتها، ويسعى إلى الإحاطة بمختلف حيثياتها وملابساتها"[2].

[1] سعيد يقطين، السرد العربي (مفاهيم وتجليات)، ص65.

[2] المرجع السابق، ص67.

وقولنا (السرد العربي القديم) لا يدل على تحيز عرقي، إنما المقصود بالمصطلح هو الوقوف على الأنواع السردية القديمة التي تكونت ضمن الثقافة التي أنتجتها اللغة العربية خاصة الحكايات والسير الشعبية والمغازي والأساطير والخرافات وكرامات الصوفية والمنامات والمقامات وأيام العرب والأخبار والنوادر...الخ. في إطار حيز جغرافي ممتد من عصر ما قبل الإسلام (العصر الجاهلي) إلى قبيل العصر الحديث مرورًا بالعصر الإسلامي والأموي والعباسي، وعصر الموسوعات الأدبية واللغوية (عصر الضعف).

فالسرد العربي القديم يواجه زمنيا السرد العربي الحديث، وهي القضية التي تفصلها الصفحات الموالية ونحن نتحدث عن تاريخ السرد العربي القديم.

ثانيا. تاريخ السرد العربي القديم "النشأة/ التطور":

إن مقولة "الشعر ديوان العرب" التي شاعت في الثقافة العربية حجبت كثير من الحقائق التاريخية، من هذه الحقائق؛ وفرة السرد العربي القديم، بدليل أنك "لو طلبت من قارئ عربي أن يذكر لك نماذج من السرد العربي الكلاسيكي، فإنه سيذكر طفولته والمدرسة الابتدائية ويقول لك: كليلة ودمنة، ثم يلوي شفتيه ويحرك يديه بيأس ويضيف "رسالة التوابع والزوابع"، "المقامات"، "رسالة الغفران" وبعد ذلك يسكت ولن تستطيع أن تنتزع منه عنوانا آخر، قرون من السرد يختزلها لك في أربعة أو خمسة عناوين..."[1]. نعم قرون من السرد تنحصر في مجموعة من المدونات بل إن بعض المتعجلين تجده يستخف بالسرود العربية القديمة ويضعها خارج إطار النص الأدبي، وهذا الانحراف في التصور له أسباب متعددة نجملها في هذه النقاط:

1- الخطاب النقدي العربي ركز على الشعر في بحوثه ودراساته[2] وأهمل النصوص السردية، مما أسهم في حرمان القارئ العربي من معرفة مظان السرود العربية القديمة.

---

[1] عبد الفتاح كيليطو، الحكاية والتأويل (دراسات في السرد العربي)، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط1، 1988، ص05.

[2] من هذه المؤلفات:

- تاريخ النقد الأدبي عند العرب (نقد الشعر من القرن الثاني إلى القرن الثامن)، إحسان عباس.
- نظرية الشعر عند الفلاسفة المسلمين (من الكندي حتى ابن رشد)، كمال الروبيبي.
- الثابت والمتحول، لأدونيس.
- نظرية الشعر عند العرب، لمصطفى الجوز. - الصورة الفنية في التراث النقدي البلاغي، جابر عصفور.
- مفهوم الشعر، جابر عصفور. - موسيقى الشعر لإبراهيم أنيس.

2- عدم امتثال المرويات السردية القديمة لشروط الفصاحة المدرسية التي أنتجتها البلاغة العربية.

3- السرد العربي القديم سرد شفوي في معظمه، أو هو فن لفظي قوامه راو ومروي وحكاية.

إن العودة المتأنية إلى المكتبة العربية القديمة وتصفح ما فيها من أسفار وذخائر يجعلك تواجه أجناس وأنواع سردية هي في مصاف الشعر على مستوى الإنتاج والتلقي. لكن الخطاب النقدي العربي القديم[1] لم يهتم بهذه الأنواع والسرود كاهتمامه بالشعر جمعا وشرحا وتحليلاً، ودراسة "إن نهوض النقد العربي القديم على جنس الشعر الذي اعتبر بحق عمدة الأدب جعل معاييره المستصفاة تدين في أصلها لجماليات هذا الجنس الأدبي، وعلى هذا النحو لم يتح للأنواع النثرية الأدبية أن تسهم في بلورة المفاهيم النقدية والبلاغة الموروثة عن تفكيرنا الأدبي القديم إلا في حدود ضيقة"[2]. وهذا الانحياز يطرح إشكالاً آخر هو "ما السبيل إلى تحليل أنواع نثرية لا تسعف المعايير البلاغية الموروثة في إدراك طبيعتها"[3]. فلو عدت إلى كتاب (مفتاح العلوم) للسكاكي (ت626هـ)، أو كتاب (المطول) لسعد الدين التفتزاني (ت792هـ)، أو كتاب (الطراز) ليحي العلوي (ت749هـ)، أو كتاب (عروسي الأفراح) لبهاء الدين السبكي (ت773هـ) لوجدت التمثيل والاستشهاد واستنباط الأحكام البلاغية لم يخرج عن دائرة الشعر العربي الفصيح ومصادر الوحي (القرآن الكريم والسنة النبوية)، ونادرًا أن تجد شواهد من خطبةٍ أو رسالة أو وصية، أما الأنواع السردية العربية القديمة فلا أثر لها في تراث الدرس البلاغي.

---

[1] من المصادر القديمة التي أهملت السرد نذكر:
- طبقات فحول الشعراء لابن سلام --- (ت232هـ).
- الشعر والشعراء لابن قتيبة (ت270هـ)
- الموازنة للأمدي (ت370هـ).
- معجم الشعراء لابن عبد الله محمد بن عمران المرزباني (ت384هـ).
- معيار الشعر لقدامة بن جعفر (ت337هـ).
- منهاج البلغاء وسراج الأدباء لحازم القرطاجي (ت684هـ)

[2] محمد شبال، بلاغة النادرة، منشورات نادي الكتاب، كلية الآداب، تطوان، 1988، ص06.

[3] المرجع السابق، ص07.

إن المقولة الذهبية للرقشي والتي ذكرها الجاحظ (ت255ه) في البيان والتبيين ومفادها أن "ما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون، فلم يحفظ من المنثور عشره، ولا ضاع من الموزون عشره"[1]. تؤكد أن السرود العربية القديمة هي من الوفرة والكثرة، نجدها في الأساطير والخرافات والسير والمقامات، كما نجدها في كتب البحارة والرحالة وكتب النوادر والتاريخ بل إن "كتب الحديث النبوي وتراجم العلماء تشتمل على قطع أدبية رائعة تتفوق في قوتها وحيويتها وسلامتها، وفي بلاغتها وجمال لغتها على دواوين ومجاميع ورسائل أكّب عليها الناس وافتتنوا بها"[2] فالسرد العربي القديم يتوزع في آثار كثيرة، متنوعة الأنواع، متشعبة المواضيع، منها ما يمت بصلة إلى الأدب واللغة، ومنها ما هو أدخل في التاريخ، ومنها ماله بالدين –حديث وسيرة وفقها– نسب صريح[3].

ومن المصادر الجامعة للسرود العربية نذكر: كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني والذي يعد من أكبر المدونات السردية، يقول عنه ابن خلدون: "وقد ألّف القاضي أبو الفرج الأصفهاني كتابا في الأغاني جمع فيه أخبار العرب وأشعارهم وأنسابهم، وأيامهم ودولهم وجعل مبناه على الغناء في المائة صوتا التي اختارها المغنون للرشيد"[4]. والسرد كما وجد في مدونة الأغاني وجد في "نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة" وكتاب "الفرج بعد الشدة" وهما للمحسن التنوخي (ت584ه)، والكتاب الأخير هو مدونة إخبارية جمعت بين الواقع والتخييل والوهم، تبدأ هذه الأخبار بشدة أو أزمة، ثم يأتي الفرج من حيث لم يكن متوقعا، وهو كتاب "يفرج عن المكروب غمه ويحي الأمل ويبعثه في نفس من ذَرَى أمله"[5]. وسوف نشفع هذه المحاضرة بلائحة تتضمن معظم السرود العربية القديمة.

---

[1] الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق عبد الله هارون، مكتبة الجاحظ، ط4، ج1، ص287.

[2] أبو الحسن الندوي، نظرة جديدة إلى التراث الأدبي العربي، مجلة المشكاة، المغرب، العدد 11، السنة الثانية/ أوت، سبتمبر 1989، ص08.

[3] ينظر محمد القاضي، الخبر في الأدب العربي (دراسة في السردية العربية)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1998، ص09.

[4] ينظر ابن خلدون، المقدمة، دار الكتاب العربي، بيروت، 2005، ص508.

[5] التنوخي، الفرج بعد الشدة، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1995، ص05.

كل هذا يجعلنا نؤكد أن للعرب ديوانًا آخر غير الشعر هو السرد، بكل ما يحمله هذا المصطلح من دلالات لغوية ومعرفية ومع ذلك " لا أحد اهتم بتتبع مراحله وإبراز أساليبه، بل من المرجح أنه لم يخطر لباحث ببال أن يكتب تاريخا للسرد، صحيح هناك محاولات في هذا الميدان لكنها تصب اهتمامها على السرد "الأدبي" انطلاقا من مفهوم ضيق للأدب، يتناول الباحث أصنافا معينة من السرد ويقصي أصنافا أخرى لا يعتبرها أدبية"[1]. وهي التي حاول عبد الفتاح كيليطو الاهتمام بها ودراستها في "الحكاية والتأويل"، وكتاب "الغائب"، وكتاب "المقامات" فاختلال موازين القوى الثقافية وراء مركزية النسق الشعري وهامشية النسق السردي.

إن الاهتمام الجاد بالتراث السردي العربي بدأ مع منتصف القرن العشرين من خلال مباحث ودراسات مركزة، نحاول أن نقسّمها –للتوضيح– إلى جيلين، هما: جيل التأسيس وجيل الرواد.

1– جيل التأسيس:

يبقى جيل التأسيس يحضى بشرف الريادة الزمنية من خلال مباحثه التأسيسية حول السرد العربي القديم، من أبرز هذه الكتابات:

– كتاب "الأدب القصصي عند العرب" لموسى سليمان، تحدث فيه عن القصص العربي وقسّمه إلى أصيل ودخيل، ويعد هذا الكتاب "مساهمة أولية في التأريخ للسرد العربي القديم"[2].

– كتاب "التراث القصصي في الأدب العربي مقاربة سوسيوسردية" لمحمد رجب النجار، وبعد هذا الكتاب "خطوة إيجابية في مسار الدراسات السردية العربية لما يتميز به من طابع موسوعي أراد له صاحبه أن يكون محيطًا بمخلف التجليات السردية العربية"[3].

– كتاب "الفن القصصي العربي القديم من القرن الرابع إلى القرن السابع" لعزة غنام إلا أن الباحثة اكتفت بجمع المادة السردية التي كتبت في هذه المرحلة.

تلحق بهذه الكتب المركزية كتب أخرى نذكر منها:

---

[1] عبد الفتاح كيليطو، الحكاية ؤوالتأويل، ص06.

[2] سعيد يقطين، كتابة تاريخ السرد ؤالعربي، مجلة التبيين، العدد 15، 2000، ص38.

[3] المرجع نفسه، ص39.

– نقد النثر في تراث العرب حتى نهاية العصر العباسي لخالد رباح أبو علي.
– نقد النثر العربي حتى القرن الرابع الهجري لمحمد خير شيخ موسى.
– الموقف من القص في تراثنا النقدي لكمال الرويسي.

2– جيل الرواد:

إذا كان للجيل الأول شرف التأسيس والريادة الزمنية فإن للجيل الثاني شرف التأصيل النقدي للسرد العربي القديم، وبذلك حقت له الريادة النقدية، والذي زاد دراسات هذا الجيل أهمية هو طابعها العلمي واستفادتها الواعية من الدراسات الغربية عامة ومباحث علم السرد عند "رولان بارت، وتودوروف، وغريماس، وجيرار جيينت" خاصة.

من أعلام هذا الجيل نذكر:

أ– عبد الفتاح الكيليطو: الاشتغال بالتراث السردي قضية مركزية في المتن الكيليطوني فقد خصّ التراث العربي في معظم أعماله الأكاديمية نذكر من هذه الأعمال:

– المقامات "السرد والأنساق الثقافية" ركّز فيه على علاقة النص السردي بالأنساق الثقافية المحيطة به، مشتغلا على المدونات المقامية للهمذاني، ابن شرف القيرواني، وابن بطلان وابن ناقيا والحريري.

– الحكاية والتأويل (دراسات في السرد العربي) اهتم فيه بالسرد الأدبي وغير الأدبي بالاشتغال على أنواع مختلفة (الخطاب البلاغي، الشعر، الخرافة، المثل) في عصور متعاقبة (الجرجاني، ابن المعتز، الميداني...).

– العين والإبرة دراسة في ألف ليلة وليلة وهي دراسة تعانقت فيها النصوص القديمة مع المناهج الحديثة.

ب– سعيد يقطين: اهتم بالسرد العربي القديم مركزًا على نوع سردي واحد هو السيرة الشعبية في كتابه (الكلام والخبر: مقدمة للسرد العربي) على اعتبار أن السيرة الشعبية عمل حكائي منته ومكتمل يمتاز بالإطناب مما يتيح له إمكانية استيعاب العديد من الأجناس والأنواع والأنماط ويلحق بهذا الكتاب كتب أخرى نذكر منها:

– ذخيرة العجائب العربية (سيف بن ذي يزن).
– قال الراوي (البنيات الحكائية في السيرة الشعبية).
– السرد العربي (مفاهيم وتجليات).

ج- **عبد الله إبراهيم:** وهو من المشتغلين بالسرود العربية، يتجلى ذلك في كتابه: السردية العربية (مبحث في البنية السردية للموروث الحكائي العربي) استنطق في هذا الكتاب الأصول التي قامت عليها السردية العربية القديمة بغية استخلاص الهياكل التي تؤطر أبنيتها مشتغلا على مكونات البنية السردية للخرافة والسيرة والمقامة. توج التحليل بكشف مستويات التماثل بين بنية الموجهات الخارجية وبنية السرد.

ثم أعاد إخراج كتابه (السردية العربية) ضمن موسوعته الكبرى (موسوعة السرد العربي) والتي تضم إلى جانب السردية العربية القديمة، السردية العربية الحديثة.

إلى جانب هؤلاء الأعلام، تأتي دراسات وبحوث أخرى سارت على نسق الرواد، وعملت بتوجيهاتهم النقدية والإجرائية، نذكر منها:

- كتاب الخبر في الأدب العربي (دراسة في السردية العربية) لمحمد القاضي.
- كتاب المقامات والتلقي لنادر كاظم.
- كتاب السرد العربي القديم لضياء الكعبي.
- كتاب السرد العربي القديم (الأنواع، الوظائف، البنيات) لإبراهيم صحراوي.

لائحــة

تتضمن السرود العربية القديمة

حاولتُ في هذه اللائحة الإشارة إلى أهم المدونات السردية العربية القديمة والتي وصلتنا، حتى يتمكن الطلبة من الاستعانة بها في بحوثهم المستقبلية، خاصة من يتخصص منهم في السرد العربي القديم.

1- المقامات:

- الهمذاني، شرح مقامات الهمذاني، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد.
- الحريري، المقامات الأدبية.
- السرقسطي، المقامات اللزومية.
- ابن الجوزي، مقامات ابن الجوزي.
- الجزري، المقامات الزينية.
- الزمخشري، المقامات
- الشاب الظريف التلمساني، مقامات العشاق.
- الحضرمي (أبو بكر بن محسن بن عبود)، المقامات النظرية، تحقيق عبد الله محمد الحبشي.

2- السير:

- ابن هشام، السيرة النبوية.
- الحلبي، إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون.
- الواقدي، المغازي.
- الذهبي: سير أعلام النبلاء، تحقيق محي الدين أبي سعيد عمر بن غراسة العمروي.
- ابن الجوزي، سيرة عمر بن الخطاب.

- ابن شداد (بهاد الدين)، سيرة صلاح الدين.
- البلوي، سيرة أحمد بن طولون.
- سيرة الأميرة ذات الهمة.
- سيرة بني هلال.
- سيرة سيف بن ذي يزن.
- سيرة الظاهر بيبرس.
- قصة الأمير حمزة البهلوان المعروف بحمزة العرب.
- ابن أبي أصيبعة، عبون الأنباء في طبقات الأطباء.
- ابن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة.
- ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب.
- القفطي، أنباء الرواة على أنباء النحاة.

3- الخرافات:

- ألف ليلة وليلة، أربعة أجزاء.
- مائة ليلة وليلة، دراسة وتحقيق محمود طرشوتة.
- الحكايات العجمية والأخبار الغريبة، تحقيق هنس ويسر.
- ابن المقفع، كليلة ودمنة.

4- الحكايات والأخبار:

- ابن الجوزي، أخبار الحمقى والمغفلين وكتاب القصاص والمذكرين.
- الجاحظ، البخلاء.
- ابن فرج الأصفهاني، الأغاني.
- ابن شهيد، رسالة التوابع والزوابع.

- بن يوسف الكاتب، المكافأة، تحقيق أحمد أمين وعلي الجارم.
- أبو المطهر الأزدي، حكاية أبي القاسم البغدادي.
- التنوخي، الفرج بعد الشدة.
- التنوخي، مشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة.
- التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة.
- المعري، رسالة الغفران.
- محي الدين بن عربي، محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار.
- حكاية الأسد والغواص، تحقيق رضوان السيد.

5- السرد الفلسفي والصوفي:

- ابن طفيل، حي بن يقظان.
- رسالة الطير للغزالي.
- الغربة الغربية للسهروردي.

6- مصادر تاريخية وأدبية: احتوت على أنواع ومقاطع سردية:

- ابن الأثير، الكامل في التاريخ.
- ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر.
- المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر.
- السيوطي، تاريخ الخلفاء.
- الأبشيهي، المستطرف من كل فن مستظرف.
- الأصبهاني، محاضرات الأدباء في محاورات الشعراء والبلغاء.
- ابن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة.
- ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده.

- الثعالبي، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر.
- ابن قتيبة، عيون الأخبار.
- الصولي، كتاب الأوراق.
- الحصري، زهر الآداب وثمر الألباب.
- القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا.
- المقرّي، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب.
- الوشاء، الموشي في الظرف والظرفاء.
- ابن النديم، الفهرست.
- ابن الزيات، التشوف إلى رجال التصوف.
- ياقوت الحموي، معجم الأدباء.